المورد

مجلة تراثية فصلية محكمة

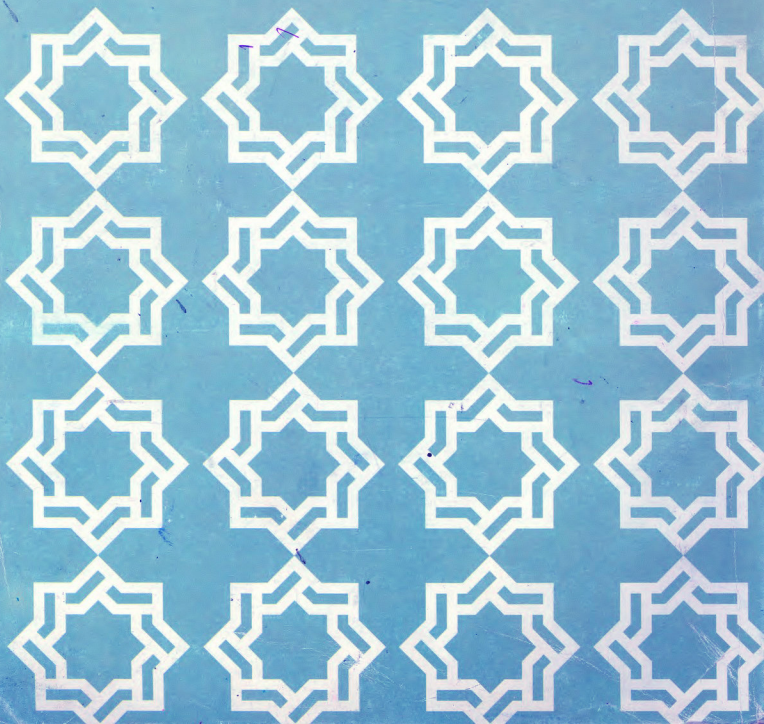

عبدالله بن المقفع في تخليط المؤرخين

بقلم
فاروق عمر فوزي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

مقـــدمة :

المعروف لدى مؤرخي الادب العربي(١) ان ابن المقفع لمع نجمه في أوائل القرن الثالث الهجرى/الثامن الميلادى حين ظهر على يديه ما يسمى « النثر الادبى أو الفني » . الا ان هذه المقالة لا تعنى ببراعة ابن المقفع الادبية قدر اهتمامها بسيرته وافكاره الدينية ـ السياسية التى تعكس صورة واضحة لاحداث ذلك العصر واتجاهاته الفكرية .

وقد اختلف المؤرخون الرواد فيما عرضوه عن سيرة ابن المقفع وآرائه وجاءوا بروايات تناقض بعضها بعضا ، فمنهم من شكك في عقيدته وسيرته ومنهم من دافع عنه مشيدا ببراعته الادبية وكفاءته الادارية . وكان من الطبيعى ان يختلف الباحثون المحدثون حول ابن المقفع فقد ظهرت عدة بحوث عرضت على بساط المناقشة مسألة آراء ابن المقفع ومواقفه . ان اختلاف الباحثين في الرأي(٢) حول هذا الموضوع يدعو الى التساؤل ، بل ان عدة افكار تتزاحم لتبحث لها عن جواب . وقد حاولنا في هذه الدراســة ان نمحص الروايات وندقق الاخبار بقدر ما تسمح به الدراسة الموضوعية الخالية من التحيز علّنا نميط اللثــام ونكشف النقاب عن جانب من الحقيقة في سيرة هذا الرجل الذى جمع بين الادب والسياسة في آن واحد .

تراث الماضي :

روزبة بن داذويه او عبدالله بن المقفع فارسي في اصله وثقافته الاولى ، قضى أغلب سنيّ حياته الاولى مجوسيا على ديانة آبائه . ولد في اقليم فارس بمدينة جور وهى مدينة جميلة عليلــة الهــواء . ويشير البلاذرى(٣) الى هذه الفترة من حياة ابن المقفــع فيقول :

« ان أباه من اشراف اهل فارس .. وكان دخل في عمل للحجاج فخرج عليــه مال فعذب به حتى تقفعت يده فغلب اسمه (المقفع) واحتــال حتى اقترض من صاحب العذاب مالا فكان يسعى عليــه من القتل » .

ان هذه الحيلة البارعة التى يشير اليها البلاذرى تدل على ذكاء داذويه (المقفع) الذى اورثه ، دون شك ، لابنه روزبة (عبدالله) كما سنرى فيما بعد . والواقع ان المقفع لم يكن ذكيا فقط بل كان بعيــد النظر كذلك وتظهر هذه الصفة في حسن تربيته لابنه وتثقيفه له تثقيفا جيدا في البصرة موطن الثقــافة والادب العربي . يقول البلاذرى :

« وكان منزله البصرة وكان حريصا على تهذيب عبدالله ابنه يجمع اليه الادبــاء ويأخذه بمشاهدة مجالسهم وألزمه ابــا الغــول الاعرابي وابا الجاموس وكانــا فصيحين »(٤) .

لقد كان من اهم مستلزمات الكاتب في الديوان ان يتقن العربية وعلومها خاصة بعد عملية التعريب الكبرى التى قامت بها الدولة الاموية . وقد استطاع

---

(١) محمد كرد علي ، امراء البيان ، الطبعة الاولى الجــزء الاول ص ١٠٣ . ـ شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي جـ ٣ ص ٥٠٧ فما بعد . طبعة القاهرة . ـ طه حسين ، حديث الشعر والنثر ، دار المعارف ، ص ٤٦ .

(٢) عن البحوث التي عالجت سيرة ابن المقفع : انظر خلدون الوهابي ، مراجع تراجم الادباء العرب ، مطبعة المعارف ١٩٦٢ بغداد جـ٤ . ص١٧ . ـ عمر فروخ ، ابن المقفع ، بيروت ، ١٩٤١ .

(٣) البلاذري ، مخطوطة انساب الاشراف ، اســتانبول ، ورقة ٥٣٢ .

(٤) البلاذري ، مخطوطة انساب الاشراف ، ورقة ٥٣٢ـ٥٣٣ . ـ كان المقفع مولى لبني الاهتم بالبصرة وقد عرفــوا بفصاحة اللسان .

عبدالله بن المقفع ان يدخل في الادارة الاموية بجدارة واصبح كاتبا لوالي نيسابور المسيح بن الحواري الذى عينه عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز على نيسابور سنة ١٢٦هـ /٧٤٣م • الا ان عبدالله بن المقفع لم يكن مجرد كاتب للوالي بل لعب دورا سياسيا بارزا كذلك فقد حدث ان عزل المسيح عن منصبه وحل محله سفيان بن معاوية المهلبي ولكن ابن المقفع حاول بدهاء ان يثبت المسيح في مركزه حيث يشير الجهشياري :

« ان ابن المقفع احتال على سفيان وعلله حتى استعد المسيح وكاتب الاكراد وجمع اطرافه وقوي امره فلما استظهر امتنع على سفيان »(٥) •

ولكن الامر لم يدم طويلا فقد استطاع الوالي الجديد الذى تدعمه السلطة من الاستيلاء على الاقليم وطرد المسيح بن الحواري سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م والسيطرة على الامور ، وبقي سفيان المهلبي يحقد بشدة على ابن المقفع وكان لذلك آثاره السيئة على العلاقة بينهما في المستقبل •

انتقل عبدالله بن المقفع من نيسابور الى كرمان واصبح كاتبا لداود بن يزيد بن هبيرة سنة ١٣٠ ـ ١٣١هـ/٧٤٨م كما يشير الى ذلك الجهشيارى ، اما البلاذرى فيقول بان ابن المقفع عمل كاتبا لعامر بن ضبارة في كرمان(٦) • وكان ابن ضبارة هذا قائدا للجيش الذى ارسله يزيد بن عمر بن هبيرة ضد الثوار الخوارج وضد عبدالله بن معاوية الطالبي • ولعل ابن المقفع عمل في معية الرجلين داود بن يزيد وعامر بن ضبارة في فترات متقاربة ، على ان المهم ما يشير اليه البلاذرى من انه انتفع من عمله فيقول :

« كانت لعبدالله بن المقفع حال جميلة وغلة تأتيه من فارس كافية وكانت له مروج تقاد اليه منها البراذين والبغال فيهديها ويحمل عليها » •

ويؤكد هذا القول الجهشيارى حين يقول بأن ابن المقفع « افاد معه مالا » اى انتفع من عمله في كرمان • لم يتبع عبدالله بن المقفع القواد الامويين المنهزمين امام الجيوش العباسية بل انسحب منهم ببراعة ووجد له مكانا في البصرة في معية العباسيين حيث نشاهده فجأة مع اولاد علي بن عبدالله بن العباس اعمام الخلفاء العباسيين ابي العباس والمنصور •

(٥) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، القاهرة ١٩٣٨ ، ص٧٢
(٦) قارن بين الجهشياري ، المصدر السابق ، ص ٧٥ . والبلاذري ، المصدر السابق ، ورقة ٥٣٣ .

وكان ابو العباس قد عين احد اعمامه سليمان بن علي(٧) واليا على البصرة •

ابن المقفع والدولة العباسية الجديدة :

يعتبر ابن المقفع من مخضرمي الدولتين الاموية والعباسية فقد شهد انتقال السلطة من الامويين الى العباسيين وبسبب تواجده في فارس وعمله في دواوين الدولة الاموية ومع ولاتها فقد تحسس عن قرب بالاحداث الجسيمة التى وقعت في الطرف الشرقى من الدولة والتى ادت الى سقوط الامويين • ولعل ابن المقفع قد ادرك بثاقب بصيرته ورهافة احساسه وبعد نظره السياسي ان لا فائدة ترتجى من الالتزام بالولاء للامويين ومكث في البصرة يراقب الاحداث عن كثب ثم قرر الارتباط باولاد علي بن عبدالله العباسى واصبح كاتبا(٨) لعيسى بن علي العباسي عم الخليفة ابى العباس •

والمعروف عن البصرة في تلك الفترة انها عثمانية لا تدين بالولاء لفريق من الفرقاء المتنازعين وربما امكننا تسميتها بالمحايدة(٩) • ولعل هذه الصفة صفة الحياد جذبت اليها عددا كبيرا من الشخصيات الاموية او المعروفة بولائها للامويين هذا اضافة الى ان سياسة الوالى العباسي سليمان بن علي المرنة المتسامحة جعلت من البصرة ملجئا امينا للعناصر المناوئة للدولة الجديدة •

وفي البصرة استطاع عبدالله بن المقفع ان يعقد صداقات وطيدة مع شخصيات اموية بارزة مثل سَلم بن قتيبة الباهلى والى الامويين السابق على البصرة ومعن بن زائدة الشيبانى القائد الاموى الشهير ، كما تقرب الى عمارة بن حمزة مولى الخليفة العباسى ابى العباس والقاضى ابن ابى ليلى والقاضى ابن شبرمة(١٠) • هذا عدا ما ذكرناه عن صلته القريبة باعمام الخليفة اولاد علي العباسى وخاصة عيسى

(٧) البلاذري ، مخطوطة انساب الاشراف ، ورقة ٧٥٣ ب ـ ٧٥٧ أ .
(٨) الجهشياري . الوزراء والكتاب ، ص ٧٠ .
(٩) عن هذا الموضوع راجع ، فاروق عمر ، العباسيون الاوائل ، بيروت ١٩٧٠ ، الجزء الاول ص ٢٠٤–٢٠٥ . ـ F. Omar, The Abbásid Caliphate, Baghdad, 1969, pp. 245—246.
(١٠) عن هذه الصداقات انظر : الجهشياري ، ص ٧٥ فما بعد . ـ البلاذري ، المصدر السابق ورقة ٣٠٦ أ ـ ٣٠٨ أ استانبول ورقة ٥٣٣ ـ . ياقوت ، ارشاد .. جـ ٦ ص٦ فما بعد . ـ اما عن علاقة عبدالله بن المقفع بعبدالحميد الكاتب فقد دخلت فيها مبالغات كثيرة (انظر ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، طبعة القاهرة ١٩٤٨ ، جـ ٢ ص ٢٩٦ فما بعد) .

وسليمان • ان هذه الارتباطات والصداقات مع شخصيات من العهد القديم وشخصيات اخرى من الدولة الجديدة تعطي اكثر من دليل الى براعة ابن المقفع وقوة شخصيته ودماثة خلقه •

وفي هذه المرحلة من حياته اعتنق ابن المقفع الاسلام حيث تشير رواية البلاذرى انه حين قرر الدخول في الاسلام فاتح عيسى بن علي قائلا :

« اني اريد الاسلام فقد خامر قلبي حبه وكرهت المجوسية فقال له اذا اصبحنا جمعت اخوتي ووجوها من وجوه الناس فشهدوا اسلامك وحضر عشاء عيسى فدعاه ليأكل فامتنع فعزم عليه وكان نظيفا حسن المواكلة فلم يدن من الطعام الا على زمزمة فقيل لا تزمزم وانت على الاسلام غدا فقال اني اكره ان ابيت على غير دين فلما اصبح اسلم »(١١) •

مقتل ابن المقفع ـ لماذا ؟

بقي عبدالله بن المقفع كاتبا لعيسى بن علي ومتمتعا بصلة سليمان بن علي والي البصرة حتى عزل هذا الاخير عن الولاية وعين الخليفة المنصور بدله سفيان بن معاوية المهلبي واليا على البصرة الذى ، كما تؤكد رواياتنا التاريخية ، قتل ابن المقفع قتلة شنيعة سنة ١٤٢هـ/٧٦٠م(١٢) •

واذا كان رواتنا يتفقون في تشخيص القاتل فانهم يختلفون في سبب القتل والباعث له والمحرض عليه • فالبلاذرى يقول بان المنصور (١٣٦هـ ـ ١٥٨هـ) عين سفيان بن معاوية المهلبي واليا على البصرة وكان بنو علي العباسى اعمام الخليفة قد طلبوا من ابن المقفع ان يكتب لهم نص الامان الذى سيمنحه الخليفة لعمه الثائر عبدالله بن علي وقد وضع ابن المقفع في الامان الشرط الشديد التالى :

« فان لم يف امير المؤمنين عما جعل له فهو بريء من الله ورسوله والامة في حل وسعة من خلعه » • ويمضى البلاذرى فيقول بان ابن المقفع هذا كان يستهزيء من الوالى سفيان المهلبي ويتسقط عيوبه اللغوية ومثالبه الشخصية وينعته بنعوت تهكمية مما جعل المهلبي يكرهه كرها شديدا • وقد اعطته هذه الحادثة فرصة ثمينة لقتله حين دعى المنصور الى التخلص من عبدالله بن المقفع • وقد ربط ابن المقفع ربطا محكما ثم القي في تنور حار فاحترق وهو يصرخ « يا اعوان الظلمة ••• »(١٣) •

ويشير الجهشيارى(١٤) ان المنصور عين سفيان المهلبي واليا على البصرة وامره بالضغط على اعمامه العباسيين بضرورة تسليم عبدالله بن علي الثائر الهارب الى البصرة وعندئذ طلب عيسى بن علي من ابن المقفع ان :

« يعمل نسخة الامان فعملها ووكدها واحترس من كل تأويل يجوز ان يقع عليه فيها وترددت بين ابي جعفر [المنصور] وبينهم في النسخة كتب الي ان استقرت على ما ارادوا من الاحتياط ولم يتهيأ لابي جعفر اتباع حيلته فيها لفرط احتياط ابن المقفع وكان الذى شق على ابي جعفر ان قال في النسخة يوقع بخطه في اسفل الامان ••• وكتبت بخطي ولا نيّة لي سواه ولا يقبل الله مني الا اياه والوفاء به » •

ويقول اليعقوبي (ت ٢٨٤هـ) عن الامان(١٥) :

« ثم طلب [عبدالله بن علي] الامان فكتبه له ابو جعفر على نسخة وضعها ابن المقفع باغلظ العهود والمواثيق لا يناله بمكروه وان لا يحتال عليه في ذلك بحيلة • وكان في الامان (فان انا فعلت او دسست فالمسلمون براء من بيعتي وفي حل من الايمان والعهود التي اخذتها عليهم) فلما وقف ابو جعفر على هذا قال من كتبه ؟ قيل ابن المقفع فكان ذلك سببا لميتة ابن المقفع » •

ويشير ابن اعثم الكوفي الى سببين في مقتل ابن المقفع الامان والعداوة الشخصية بينه وبين سفيان المهلبي فيقول :

« وكتب سليمان [بن علي] الى المنصور يساله ان يعطي عبدالله أمان فأجابه الى ذلك فقال عيسى بن علي لكاتبه عبدالله بن المقفع احب ان تكتب له امانا موكدا فكتب كتابا لا يكون لاحد مثله واستقصا

---

(١١) البلاذري ، مخطوطة انساب الاشراف ، استانبول ، ورقة ٥٢٣ •

(١٢) تختلف الروايات في سنة اغتيال ابن المقفع بين ١٤٢هـ و١٤٣هـ والاولى اصح •

(١٣) البلاذري ، المصدر السابق ، ٣١٩ أ ـ ٣١٩ ب •

(١٤) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٧١ •

(١٥) اليعقوبي ، التاريخ ، النجف ١٩٦٤ جـ٣ ص ١٠٨ •

فيه غاية الاستقصاء • فلما ورد الكتاب بالامان على أمير المؤمنين نظر فيه فشق ذلك عليه لانه كان مغتاضا على عبدالله ابن علي واراد قتله • فقال من كتب هذا ؟ ثم قال : أما لنا من يكفينا ابن المقنع ويريحنا منه ؟ وبلغت هذه الكلمة سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب بن ابى صفرة وهو بالبصرة من قبل المنصور فعزم على قتل ابن المقنع »(١٦) •

وتحت عنوان ذكر مقتل ابن المقنع يقول ابن اعثم مرة اخرى :

« قال المدايني كان السبب في مقتله ان سفيان المهلبي ربما حضر الى الديوان بالبصرة فتقع المسألة بعد المسألة فيلقيها ابن المقنع على سفيان بن معاوية فاذا لم يفهمها يقول له ابن المقنع وقعت والله يا مهلبي • قال فغضب المهلبي ذات يوم فشتم ابن المقنع ••• فقال له ابن المقنع (والله ما رضيت امك برجال العراق حتى تزوجت برجال اهل الشام) وحقد عليه سفيان • ثم ذات يوم ارسله عيسى [بن علي] الى سفيان في حاجة فقال ابن المقنع اخاف على نفسي فقال له : تخاف على نفسك وانا حي فاخذه سفيان وقطع يده ورجله ورماه بالتنور ولم يكن هناك بيّنة عليهم »(١٧) •

اما الازدي (ت ٣٣٤هـ) في تاريخ الموصل فلا يشير الى ان كاتب الامان هو ابن المقنع بل يقول :

« في سنة ١٢٨هـ قدم سليمان بن علي من البصرة على ابى جعفر واخذ عليه لاخيه عبدالله بن علي الامان فاعطاه ابو جعفر كلما التمس له من ذلك وكتب له كتابا اشهد فيه على نفسه وحلف بما تضمنه »• وبعد أن يسرد نص الامان بالتفصيل يقول: « فقدم عبدالله بن علي على ابى جعفر بهذا الامان بعد ان حلف به واشهد به على نفسه فلما دخل اليه حبسه • »(١٨)•

ويقول المقريزى عن ابن المقنع انه كتب امانا « تعدى فيه ما يكتبه الخلفاء من الامانات » ويعتمد في بقية النص على البلاذرى • وشأن ابن خلكان (ت ٦٨١هـ) كشأن المقريزى حيث يعتمد فيما يخص بحثنا على روايات من سبقه من المؤرخين ويدمج بينها محاولا ان يعطى صورة متكاملة بطريقة مختصرة وليس فيما اورده عن ابن المقنع شيء جديد عما ورد في البلاذرى والجهشيارى(١٩) •

ان معظم الروايات التاريخية التى اشرنا اليها تتفق ، رغم اختلاف اسلوبها او طريقة عرضها وتصويرها للاحداث ، على الطريقة التى انتهت بها حياة ابن المقنع • ويظهر منها ان ابن المقنع لم يكن له علاقة طيبة بسفيان المهلبي والي البصرة الذى خلف سليمان بن علي • وان العداوة بين سفيان وابن المقنع قديمة تعود الى اواخر العهد الاموى حين كان سفيان المهلبي واليا على نيسابور ، وكان عبدالله بن المقنع ينتهز الفرصة تلو الاخرى ويهزأ بلغة الوالى ويستفزه بتعليقاته على سلوكه وتصرفاته ولم يتورع بنعته « يا ابن المغتلمة والله ما اكتفت امك برجال اهل العراق حتى تعدتهم الى اهل الشام (٢٠) • وقد انتهز سفيان المهلبي غضب المنصور وقتل ابن المقنع بعد ان عذبه اشنع قتلة •

ولكن هل يكفي ذلك دليلا قاطعا يبرر قتل عبدالله بن المقنع ؟ وهنا تعترضنا المسألة التى اثارها مؤرخون متأخرون وناقشها مؤرخون محدثون الا وهى زندقة ابن المقنع •

هل كان ابن المقنع زنديقا ؟

في رواية للجهشيارى(٢١) ان سفيان المهلبي حين قطّع ابن المقنع اربا اربا واحرقه كان يقول « يا ابن الزنديقة لاحرقنك بنار الدنيا قبل نار الآخرة » • وفي رواية لابن خلكان ان سفيان المهلبي قال بعد ان مثّل واحرق ابن المقنع « ليس في المثلة بك حرج لانك زنديق قد افسدت الناس »(٢٢) • وحين يتكلم ابن خلكان عن الخليفة المهدى الذى اشتهر بتعقبه للزنادقة ينقل عنه انه قال ان كل كتاب زندقة يعود في اصله الى ابن المقفع(٢٣) • ويقول البيروني عن (باب برزوية) من كتاب كليلة ودمنة الذى ترجمه

(١٦) ابن اعثم الكوفي ، مخطوطة الفتوح ، استانبول ، ورقة ٢٣٨ ب •
(١٧) المصدر السابق ص ٢٣٨ ب ـ ٢٣٩ ب •
(١٨) ابو زكريا الازدي ، تاريخ الموصل ، القاهرة ١٩٦٧ • ص ١٦٧ـ١٦٨ عن احمد بن الحارث الخزاز ، ص١٧٠ •
(١٩) المقريزي ، مخطوطة المقفى الكبير ، المكتبة الوطنية بباريس ، ورقة ٢٤٣ب • ـ ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، طبعة القاهرة ، ١٩٤٨ جـ٢ ص٣٩٦ فما بعد •
(٢٠) الجهشياري ، الوزراء والكتاب ، ص ٧١ـ٧٢ • ـ ابن اعثم الكوفي ، الفتوح ، ورقة ٢٣٨ أ •
(٢١) الجهشياري ، المصدر السابق ، ص ٧٣ •
(٢٢) ابن خلكان ، المصدر السابق ، طبعة وتسنفلد ، جـ ٢ ص ١٢٦ •
(٢٣) المصدر السابق ، جـ٢ ص ١٢٥ •

ابن المقفع الى العربية ، بان هذا الاخير كتبه واضافه من عنده « قاصدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وكسرهم في الدعوة الى مذهب المنانية »(٢٤) .

واذا صحت الرواية(٢٥) التى تشير بان ابن المقفع احرق ببئر نورة فان هذا التقليد كان متبعا في العهد الساساني لحرق المنشقين والمنحرفين عن الديانة الرسمية وان احراق ابن المقفع بهذه الطريقة كان عملية مقصودة الغرض منها التشهير بزندقته(٢٦) .

وتشير رواية اخرى(٢٧) ان عبدالله بن المقفع حين مر ببيت من بيوت النار أنشد بيت الاحوص مبدياً حنينه الى ديانته القديمة :

يا بيت عاتكة الذى اتعزل
حذر العدى وبه الفؤاد موكل
اني لامنحك الصدود واننى
قسماً اليك مع الصدود لأميل

وتظهر رواية اخرى معارضته للقرآن وقلة احترامه له وتستند على ما كتبه القاسم بن ابراهيم في كتابه الموسوم (الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع) وكأنه يرد فيه على رسالة كتبها ابن المقفع او نسبت اليه حيث ينقل فقرات وجمل من آراء ابن المقفع في هذه الرسالة(٢٨) .

ويرى المسعودى(٢٩) بان ابن المقفع وآخرين من الملاحدة ترجموا مؤلفات ماني وابن ديصان ومرقيون . كما وان ابن المقفع ترجم كتاب مزدك . ويعلق الصفدي(٣٠) « بان كتب الزنادقة الممنوعة تحوى الكثير من آراء ابن المقفع » . وبعد ذلك كله تظهر روايات عديدة اتصال ابن المقفع بحلقة الشعوبيين والمجان المتهمين بالزندقة ومنهم البقلي الذى قتل بأمر المنصور لانكاره البعث والقيامة ، وعمارة بن حمزة الذى « انكر عليه ابو جعفر المنصور في وقت من الاوقات شيئا ونقله الى الكوفة »(٣١)

(٢٤) البيروني ، تحقيق ما للهند من مقوله ، ليبزك ، ص٧٦ .
(٢٥) البلاذري ، مخطوطة انساب الاشراف ، ورقة ٥٣٥ .
(٢٦) راجع :
D. Sourdel, La Bibliographie D'Ibn al-Mugaffa',
(٢٧) امالي المرتضى ، ج ١ ص ١٣٥ . ـ البغدادي ، خزانة الادب ، ج ٣ ص ٤٥٩ .
(٢٨) القاسم بن ابراهيم بن طباطبا ، الرد ... ، نشر جويدي سنة ١٩٢٧ ، ص ٨ .
(٢٩) المسعودي ، مروج الذهب ج ٤ ص ٢٤٢ .
(٣٠) F. Gabrieli, Le opera d'Ibn al-Mugffa', R.S.O. XIII—.
راجع ترجمتها العربية في عبدالرحمن بدوي ، ص ٤٣
(٣١) الجهشياري ، ص ٧٥ .

وأبان اللاحقي وسهل بن هارون وحماد عجرد وغيرهم ممن كانوا يتواجدون بالبصرة(٣٢) .

وامام هذه الروايات اختلف المؤرخون المحدثون في مواقفهم من زندقة ابن المقفع . واول ما يبدو لنا بان اسم ابن المقفع كان قد ارتبط بتهمة الزندقة عند المسعودى وابن خلكان والبيروني والصفدى فلم يكونوا بحاجة الى اعادة البحث والتحري عن الحقيقة المسلم بها في نظرهم . وقد انقسم المؤرخون على انفسهم فيما يخص زندقة ابن المقفع فقد نفى محمد كرد علي وخليل مردم هذه التهمة عن ابن المقفع(٣٣) ، اما الدكتور البصير فيقول ان الزندقة تهمة لفقتها السلطة العباسية على ابن المقفع ويرى في الزندقة « ذلك الستار البراق الذى يسدله ولاة الامور في صدر الدولة العباسية على كل جريمة يحلو لهم اقترافها »(٣٤) . ويشك عباس اقبال في صحة نسبة الكتاب الذى رد عليه القاسم بن ابراهيم لابن المقفع لانه لا يتفق مع الآراء المدونة في باب برزوية التى دونها ابن المقفع ذاته(٣٥) . بينما اكد شوقى ضيف زندقة ابن المقفع(٣٦) .

وبين المستشرقين عزا هيوارت مقتل ابن المقفع الى عامل الانتقام من قبل سفيان المهلبي اضافة الى ما كان يدين به من آراء(٣٧) . اما نيبرك فيرى ان اتهام ابن المقفع بالزندقة كانت الباعث الحقيقى لقتله . ويشير جويدى الى انه « كان قليل الاحترام للقرآن الذى حاول ان يعارضه ... »(٣٨) .

أما جبريللي وهو افضل من توسع بعمق حول كتابات ابن المقفع وآراءه فقد اشار الى ان الفقرات التى تنتقد الدين في (باب برزوية) هى من وضع ابن المقفع الذى حشرها دون ان يسفر بوضوح عن عقيدته الالحادية . يقول جبريللي(٤٠) :

« ان القطعة كلها بما فيها من جرأة في التفكير ومغزى تهكمي لاذع لا يمكن ان

(٣٢) عن هذه الشخصيات راجع الاصفهاني ، الاغاني (الفهرست) .
(٣٣) محمد كرد علي ، رسائل البلغاء ، ص ٨ . ـ خليل مردم ، ابن المقفع دمشق ١٩٣٠ ص ٥٢ فما بعد .
(٣٤) البصير ، في الادب العباسي ، بغداد ١٩٥٥ ص ١٠ .
(٣٥) عباس اقبال ، شرح حال عبدالله بن المقفع (بالفارسية) ص ١٩ فما بعد .
(٣٦) شوقي ضيف . تاريخ الادب العربي ج ٣ ص ٥٠٩ .
(٣٧) Nyberg, Der Kampf Zwischen Islam.,., OLZ, 1929 p. 432
(٣٩) انظر مقدمة جويدي في
Guidi, La letta tra l'Islam eil Manicheism
(٤٠) جبريللي ، المصدر السابق (الترجمة العربية) ص٤٥ .

تكون قد كتبت وانتشرت باسم مؤلفها في دوائر بلاط فارس الساسانية ودينها الرسمي هو المزدكية او في المجتمع الاسلامي في القرن الثامن الميلادي ·
ولكن من المحتمل جدا ان عقلا يسوده الشك والتفكير كما كان عقل ابن المقفع قد اظهر في هذه القطعة آراء ناسبا اياها الى شخص اجنبي ووسط بعيد غريب » ·

ويضيف جبريللي(٤١) :

« ان علينا ان نرفض ان يكون ابن المقفع وهو في سن الرجولة [والنضج] قد تعلق بالمجوسية وآمن بها ايمانا عقليا ولو انه من الممكن ان يكون ابن المقفع مع ذلك يميل الى دين الفرس القديم من ناحيتي العاطفة والحضارة » ·

ان جبريللي يؤكد عقيدة ابن المقفع المانوية ، وصحة نسبة (باب برزوية) في كليلة اليه ودمنة اليه وكذلك الكتاب الذى رد عليه القاسم بن ابراهيم · ويقول بان ابن المقفع رد على مادة القرآن بطريقة فلسفية جدلية وببراهين عقلية اثارت الامام القاسم ايما اثارة فحملته على الرد بنفس الاسلحة التي صنعتها المعتزلة في تلك الفترة(٤٢) · على ان جبريللي يرى ان مقتل ابن المقفع لم يكن بسبب زندقته بل انه كان عملا انتقاميا بحتا(٤٣) ·

ويستغرب المستشرق كويتين من جرأة ابن المقفع التى دفعته للكتابة (رسالة في الصحابة) التى تمثل انتقادا للاوضاع السائدة في البلاط والادارة العباسيين واعطاء برنامجا سياسيا بديلا لما يجب ان يكون عليه الوضع السياسى والادارى · ويرى كويتين في (الرسالة) سببا لقتل ابن المقفع حيث يقول :

« اننا لا نكون بعيدين جدا عن الحقيقة اذا افترضنا بان الرسالة مع انها تدل على اهتمام جدي بترسيخ الخلافة [اصلاحها] فانها اثارت شكوك المنصور وادت الى مقتل ابن المقفع »(٤٤) ·

ولم يكن سفيان المهلبي ، في اعتقاد كويتين نفسه ، ليقوم بقتل ابن المقفع الا بمعرفة الخليفة المنصور نفسه واقراره بذلك ·

ويؤكد البروفسور سورديل(٤٥) في احدث مقالة له عن ابن المقفع على ما اشار اليه البروفسور كويتين من انه لا يمكن اعتبار الزندقة ولا العلاقة الشخصية العدائية بين ابن المقفع وسفيان المهلبي سببا لمقتل الاول ، بل ان سفيان المهلبي لم يكن سوى وسيلة بيد الخليفة المنصور الذى كان له الدور الرئيس في هذه المسرحية · الا ان سورديل يختلف عن كويتين حين يربط الاغتيال بصورة غير مباشرة (بالامان) الذى كتبه ابن المقفع لعبدالله بن علي عم الخليفة ، وكان ابن المقفع بكتابته للامان قد وقف الى جانب العناصر المعادية للخلافة · ويحاول البروفسور سورديل ان يربط بين (الامان) ورسالة في الصحابة اذ ان كليهما فيما تضمناه من آراء وانتقادات يسيران في نفس الاتجاه المعادى ، من وجهة نظر الخليفة ، للدولة ولذلك استقر رأي المنصور على التخلص من ابن المقفع بأية وسيلة ·

نظرة نقدية للمصادر :

ان قلة النصوص التاريخية الواضحة حول آراء ابن المقفع واسباب مقتله ربما تضطرنا احيانا الى التشبث بالنص وتحميله اكثر من طاقته لنتوصل الى نتائج تاريخية حول الموضوع · ولكن هذه النتائج لم يكن بامكاننا التوصل اليها دون تمحيص وتدقيق وقراءة هادئة لما بين السطور ·

أ ــ النقد الخارجي : ليس بالامكان ، كما فعل جبريللي ، الاعتماد كليا على مصادر متأخرة جدا بالنسبة لتاريخ ابن المقفع حيث استقى معلوماته من ابن خلكان وابن الجوزي والصفدي · وقد لاحظ البروفسور سورديل ذلك واستقل البلاذرى والجهشيارى المصدرين الرئيسيين اللذين لم يتيسر لجبريللي الاعتماد عليهما · على اننا اضفنا مصادر اخرى ذات قيمة تاريخية لم تكن متيسرة لدى البروفسور سورديل وهي (مخطوطة الفتوح) لابن

---

(٤١) المصدر السابق ص ٤٢ ·

(٤٢) المصدر السابق ص ٤٦ــ٤٨ · ــ تجنب جبريللي في عناء تحديد الاضافات التي اضافها ابن المقفع الى باب برزويه رغم قوله بان ابن المقفع هو الذي كتب الجزء الخاص بخلو معارفنا الدينية من التعيين وتناقض الاديان فيما بين بعضها البعض . وقد رد عليه كروس فراى بانه من المحتمل ان يكون ابن المقفع قد ادخل نصوصا جديدة من عنده في باب برزويه الا انه يعتقد بأن النسخة الاصلية الفهلوية لنفس النص تتضمن اقوالا شكوكية عن الاديان جعلها ابن المقفع اساسا لما دونه من اضافات
P. Kraus, Zu Ibn al-Muqaffa'.,) R.S.O., Vol. 14, 1933.

(٤٣) المصدر السابق ، ص ٥٢

(٤٤) Gaiteim, A Tturning point in the history ...,- I.C., 1949, p. 122

(٤٥) D. Sourdel, La Biographie D'Ibn al-Muqaffa'.., pp. 317—18

اعثم الكوفي (ومخطوطة تاريخ الموصل) لابن زكريا الازدي (ومخطوطة المقفى الكبير) للمقريزي ·

واذا كانت روايات البلاذرى فيما يخص موضوع البحث الذى بين ايدينا تقتصر على الحقائق الجافة ينقلها البلاذرى من رواتها بطريقة مبسطة ، فان الجهشيارى ، وهو مؤرخ بارع وكاتب في الديوان متمكن يتحلى بمزايا ادبية جيدة يزودنا بروايات دسمة وواضحة · اما مخطوطة ابن اعثم الكوفي فقد لا تختلف في جوهرها عما ورد في البلاذرى الا ان هناك اختلافات في صيغ العبارات والجمل وفي نص فقرات من كتاب الامان · ورغم كون الازدي يكتب في تاريخ الموصل المحلي الا انه يضيف معلومات لاحداث هامة وقعت في انحاء مختلفة من الخلافة وهو ينقل نص الامان بكامله · وقد استغل ابن خلكان البلاذرى والجهشيارى بحيث دمج واختصر ما عندهما عن ابن المقفع حسب ما رآه مناسبا ، على ان هذا الدمج شوّه احيانا ما فيهما من اخبار او معلومات عن قصد او دون قصد · ورغم كون المقريزى مؤرخا متأخرا كذلك الا انه مؤرخ واع وبارع وهو يعتمد فيما يخص هذه الاحداث على البلاذرى وينقل عنه روايات كاملة بصورة حرفية ·

ب ـ النقد الداخلي : لابد من التنويه الى ان الروايات التى تشير الى زندقة ابن المقفع تأتى غالبا من مصادر متأخرة او انها روايات ضعيفة لا سند لها · ومع ذلك فهى لا تتفق على ان زندقة ابن المقفع كانت سببا في قتله ·

وقبل مناقشة هذه الروايات والتثبت من صحتها نقول بان اصطلاح « الزندقة » اصطلاح غامض ومرن وقد اوضح المستشرق ماسنيون(٤٦) مدى شمولية هذا الاصطلاح وتوسع دلالاتها لدى الرواة والاخباريين المسلمين الى درجة يصعب معها اعطاء تعريف دقيق ومحدد له ·

وقد لاحظ المستشرق فيدا(٤٧) كذلك ان لاصطلاح الزندقة معان عدة في تلك الفترة حيث كان يطلق على من يؤمن بالمانوية ثم شمل كل ملحد او مشكك بالعقيدة الاسلامية وكل من يخالف مذهب الدولة العباسية الرسمى كما اطلق على المجان والخلعاء والمستهترين من شعراء او كتاب تلك الفترة · ورغم ان الزنادقة الذين طاردتهم السلطة العباسية كانوا مانوية بالدرجة الاولى(٤٨) الا ان الامر لم يقف عند هذا الحد فقد اتهم البعض بالزندقة لاسباب سياسية او شخصية واصبحت الزندقة تهمة تتخذ وسيلة للقضاء الخصوم السياسيين وسبيلا للتخلص من المنافسين على المناصب · واذا كان الامر كذلك فمن الصعب الجزم بزندقة ابن المقفع ·

اما النعوت التى خاطب بها سفيان المهلبي ابن المقفع مثل « يا ابن الزنديقة » وغيرها مما ذكرناه آنفا فهو تعبير كلامى ليس الا واستهزاء بابن المقفع على نفس الطريقة التي كان ابن المقفع يستهزيء بسفيان المهلبي · أو انه ، كما يشير سورديل ، تعبير اثارته الطريقة التى عذب بها ابن المقفع قبل موته حيث وضع في حفرة من النورة الحارة وهى عين الطريقة التي كان يعذب بها الزنادقة المنشقين في العهد الساسانى · واكثر من هذا فلعلنا نستطيع القول بأن سفيان اتهم ابن المقفع بهذه التهمة مبررا قتله وهى اسلوب غير جديد على الوالى او ممثل السلطة العباسية حيث استعملت الزندقة وسيلة لقتل المعارضين ·

أما ما ذكره الخليفة المهدى حين قال : « ما وجدت كتاب زندقة قط الا وأصله ابن المقفع » فلم يكن هذا التصريح من خليفة حكم بعد حوالى ست عشرة سنة من مقتل ابن المقفع اكثر من انطباع خامر الخليفة في حينه وليس له من التاريخية قيمة حقيقية ولا يقاس بمستوى الحكم القاطع · الا ان صدور مثل هذا القول من خليفة عرف في التاريخ بمطاردته للزنادقة (المانوية) وتشديده عليهم اعطى الانطباع صورة الحقيقة والتعيين وقبلت من قبل المؤرخين المتأخرين كحقيقة تاريخية مسلّم بها فوصفوا ابن المقفع بالزندقة والمانوية ·

اما الروايات التى تشير الى ان زندقة ابن المقفع تعني الزرادشتية(٤٩) فليس لها اساس من الصحة ذلك لان الزندقة في العصر العباسي لم تشمل الزرادشتية بل على العكس فان رجال الدين الزرادشت تعاونوا مع السلطة العباسية في القضاء على المتمردين والمنشقين. الفرس امثال بها فريد واستاذ سيس والمقنع الخراسانى وغيرهم ·

وفيما يخص علاقة ابن المقفع ببعض الشعراء والكتاب المجان والشكاك والشعوبيين في البصرة فان الدراسات المستفيضة للعديد منهم لم تثبت زندقتهم

---

(٤٦) انظر :
E.I.(¹) (Zindiq) .- Idem, La passion dal Hallag, pp. 186—188.

(٤٧) G. Vajda, Les Zindiqs en pays d'Islam ..., R.S.O., XVI, 1937 pp. 173—229.

(٤٨) فاروق عمر ، العباسيون الاوائل . دمشق ، ١٩٧٣ جـ ٢ ص ١٢٣ فما بعد .

(٤٩) Chrirtensen, L'Iran ..., 1936 p. 54.

بل اكدت براءتهم من الزندقة (بمعنى المانوية) وربما كان لبعضهم شك فكرى ليس الا(٥٠) ٠

ثم ان اغلب ما جاءنا عن من يسمون «بالزنادقة» كان في مصادر معادية لهم بصورة سافرة ولذلك لا يمكن الجزم بصحة الاخبار التى ذكرت عنهم وليس بالمستبعد ان آرائهم بدلت وحرفت او بولغ فيهـا واظهروا بمظهر يسهل التجريح به والهجوم عليه ٠

وفيما يتعلق بمؤلفات ابن المقفع وما نسب اليه من قبل القاسم بن ابراهيم المعتزلى فالرأي مختلف حول صحة نسبة الكتاب الذى رد عليه القاسم بن ابراهيم الى عبدالله بن المقفع ٠ فالمعروف عن ابن المقفع انه اديب يمتاز باسلوب رفيع وقد ألف وترجم العديد من الكتب والرسائل ٠ الا ان ذلك العصر ابتلى بتقليد سيىء وهو ان ينسب الكاتب كتابه او رسالته الى غيره ليروجها بين الناس أو مخافة التشهير او السلطة او الى غير ذلك من الاسباب ٠ يقول الجاحظ في هذا الباب :

« وربما ألف الكتاب الذى هو دونه في معانيه والفاظه فيترجمه باسـم غيره ويحيله على من تقدمه في عصره مثل ابن المقفع والخليل »(٥١) ٠

والى ذلك يشير المسعودى فيقول(٥٢) :

« ٠٠ على ان من شيم كثير من الناس الاطراء للمتقدمين وتعظيم كتب السالفين ومدح الماضى وذم الباقى وان كان في كتب المحدثين ما هو اعظم فائدة واكثر عائدة وقد ذكر ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ انه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم فينسبه الى نفسه فلا يرى الاسـماع تصغي اليـه ولا الارادات تيمم نحوه ثم يؤلف ما هـو انقص من مرتبة واقل فائدة ثم ينحله الي عبدالله بن المقفع او سهل بن هارون او غيرهما من المتقدمين ومن قـد طارت اسماؤهم في المصنفـين فيقبلـون على كتبها ويسارعون الى نسخها لا لشـيء الا لنسبتها الى المتقدمين ولما يدخل اهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التى يخص بها »٠

من ذلك نستنتج ان الجاحظ وغيره كانـوا يفخرون بنسبة بعض مؤلفاتهم الى عبدالله بن المقفع ويتساءل البروفسور جبريللي(٥٣) بحق عن مـدى صحة آثار ابن المقفع اليه ، ويعتقد بأن الادب الكبير ورسالة في الصحابة فقط يمكن التأكد بأنهما له ٠ اما من حيث الكتب المترجمة فمن المؤكد ان ابن المقفـع ترجم كليلة ودمنة وخداينامة وكتاب التاج وآيين نامه وكتاب مزدك الى العربية ٠ ويدعو المستشرق شارل بلات(٥٤) الي الحذر ويقول « ان هذا التزييف وهذين الوضع والافتعال يسوّغ التحفظ » ٠ والواقع فان المؤرخين المحدثين يختلفون في نسبة الكتاب او الرسالة التى زعم القاسم بن ابراهيم انها لابن المقفع ، ففى الوقت الذى يقبلها جويدى وجبريللي(٥٥) ، كمـا اوردنا ذلك سابقا ، يرفضها او يشك في صحة نسبتها كل من احمد أمين ورشتر وعباس اقبال وداود(٥٦) ٠ ويرى هذا الاخير بان هذه المقالة لا يمكن ان تنسب الى ابن المقفع لا من حيث اسلوبها الذى لا يشابه اسلوب ابن المقفع ولا من حيث تحليلها الذى لا يصل الى مستوى منطق ابن المقفع ٠ ثم انه من غير المعقول ان نتصور رجلا مدركا مثل ابن المقفع يقحم نفسه في هجوم علني شديد على الاسلام وهو يعيش في مجتمع اسلامى ٠ كما وان اسلوب الكتاب الذى نسب الى القاسم بن ابراهيم هو من نوع النثر ذى اسلوب خاص مسجوع لم يتطور الا بعد فترة طويلة من الفتـرة التى عاش فيها القاسم بن ابراهيم ٠ وبعد هذا كله لابد لي ان اذكر ان ابن النديم لم يذكر هذا الكتاب ضمن الكتب المؤلفة من قبل القاسم بن ابراهيم(٥٧) ٠

---

(٥٠) راجـع : G. Vajda, op. cit., pp. 173 ff : J. Goldziher, Salih b. Abd al-Kaddus ..I.C.O., 1893, pp. 104 ff.

(٥١) الجاحظ ، رسالة في العداوة والحسد ، ص ١٠٨ ٠

(٥٢) المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ١٩٣٨ ، ص ٦٦-٦٧ ٠ لقد وقع ذلك للكثير من العلماء والادباء المشهورين مثل حنين بن اسحق العبادي (راجع ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء ، بيروت ١٩٦٥) ٠

(٥٣) جبريللي ، المصدر السابق ، ص ١٩٨ ٠

(٥٤) شارل بلات ، الجاحظ ، دمشق ، ١٩٦١ ، (الترجمة العربية) ص ١٩٥ ٠

(٥٥) هذا رغم ان المستشرقان يختلفان في طبيعة هذا الكتاب واغراضه وهل انه يعارض القرآن من حيث الاسلوب والصورة ام من حيث المادة والفكر ٠ (راجـع : Gabrieli, Le Opera ..., pp. 45—46 (الترجمة العربية)

(٥٦) احمد امين ، ضحى الاسلام ج ١ ص ١٩٥ ٠ ـ و ... Richter, Studien Zur Geschicte..., -. 1923, pp. 4 ff.

عباس اقبال ، المصدر السابق ، ص ٢٠ فما بعد ٠ ـ A. H. Dawood, A Comparative Study of Arabic and Persian Mirrors for Princes. PH. D. Thesis, London Univevsity 1965

(٥٧) ابن النديم ، الفهرست ، طبعة ليبزك ، ص ١٩٣ ٠

أما الفقرات الواردة في (باب برزوية) من الكتاب المترجم كليلة ودمنة ، فمن الواضح انها تعود الى فترة ما قبل اسلامه وليس لها علاقة بالفترة الاسلامية • وسواء كانت هذه الفقرات من اصل الكتاب ام من بنات افكار ابن المقفع فانها ليست هجوما على الاسلام وانما تشكيك بالمعتقدات الدينية عامة وليست لها صفة مانوية واضحة • وفي ذلك يقول ابو بكر الباقلاني الاشعرى (ت سنة ٤٠٣هـ) في كتاب اعجاز القرآن(٥٨) :

« وقد ادعى قوم ان ابن المقفع عارض القرآن وانما فزعوا الى الدرة اليتيمة وهما كتابان احدهما يتضمن حكما منقولة توجد عند حكماء كل امة مذكورة بالفضل فليس فيها شيء بديع من لفظ ولا معنى • وكتابه الذى بيناه في الحكم منسوخ من كتاب بزرجمهر في الحكمة فأي صنع له في ذلك وأي فضيلة حازها فيما جاء به ؟ وبعد فليس يوجد له كتاب يدع مدع انه عارض فيه القرآن » •

اما شعر الاحوص الذى تذكر بعض الروايات ان ابن المقفع ردده متنزلا ببيت النار فالمؤرخون الاوائل يختلفون حول المناسبة التي ردد فيها ابن المقفع هذا البيت(٥٩) •

وعلى هذا فاننا نرى بانه من الصعب التدليل على مانوية ابن المقفع أو زندقته ، فقد دخل الاسلام في أوائل العصر العباسى وبعد اسلامه استبدل كنيته وسمى ابنه محمدا • وقد ناقش الكثير من المسائل الاسلامية فيما كتبه وخاصة في (رسالته في الصحابة) • ولعله يمكننا القول بان ابن المقفع كان متشككا في الدين بصورة عامة رغم اعتقاده بضرورته الاجتماعية• يقول ابن المقفع :

« ولعمرى ان لقولهم ليس الدين خصومة أصلا يثبته • وصدقوا ما الدين بخصومة ولو كان خصومة لكان موكولا الى الناس يثبتونه بآرائهم وظنهم • وكل موكول الى الناس رهينة ضياع • وما ينقم اهل البدع الا انهم اتخذوا الدين رأيا وليس الرأي ثقة ولا حتما ولم يجاوز الراي منزلة الشك والظن الا قريبا ولم يبلغ ان يكون تعيينا ولا ثبتا ••• فلا اجد احدا اشد استخفافا بدينه ممن اتخذ رأيه ورأي الرجال دينا مفروضا »(٦٠)•

وحين يتكلم ابن المقفع عن اقسام الملك يقول انها ثلاثة اولها ملك الدين ويعرف هذا النوع من الحكم قائلا :

« فأما ملك الدين فانه اذا اقيم لاهله دينهم وكان دينهم هو الذى يعطيهم مالهم ويلحق بهم الذى عليهم ارضاهم ذلك ونزل الساخط منهم منزلة الراضى في الاقرار والتسليم ••• »(٦١) •

هذه الاقوال وغيرها لابن المقفع تدل على ادراكه لاهمية الدين وكونه ضابطا مهما من ضوابط المجتمع الذى كان يعيش فيه بل انه ضرورة اجتماعية في مجتمعات العصور الوسطى وبخاصة في مجتمع الخلافة الاسلامية حيث يمتزج الدين بالسياسة والمجتمع امتزاجا وثيقا • هذا بغض النظر عن كون ابن المقفع نفسه يؤمن بالدين أو لا يؤمن به •

اعادة التقييم :

ان المتمعن في ظروف الخلافة العباسية على عهد المنصور لابد ان يلاحظ المرحلة السياسية الدقيقة والحرجة التى كانت تمر بها • فقد اعتورت الخلافة عدة اخطار من مختلف الجهات حيث ثار عبدالله بن علي العباسى بالشام ثم لم يلبث ان حدث الشقاق بين ابى مسلم الخراسانى والخليفة وتمردت الراوندية في هاشمية الكوفة وهدد العلويون بالثورة في الحجاز ولم تكن خراسان مستقرة بل هزتها عدة اضطرابات محلية منها تمرد سنباذ واستاذ سيز وغيرهما •

ولم يكن البيت العباسى نفسه متماسكا فالفرع الحاكم ويتكون من اولاد محمد بن علي بن عبدالله ابن العباس كان حذرا من بني علي بن عبدالله العباسى وهم اعمامهم • وكان هؤلاء الاعمام (بنو علي العباسى) حذرين لم ينسوا بعد كيف نقض ابو العباس وابو جعفر سلسلة من الامانات اعطيت لشخصيات سياسية كبيرة مثل يزيد بن عمر بن هبيرة آخر والي للامويين على العراق وابى مسلم

(٥٨) الباقلاني ، اعجاز القرآن القاهرة ١٣١٥ ص ١٨ •

(٥٩) اذا كان ابن قتيبة (عيون الاخبار ، ص ٧١ الطبعة الاوربية •) والمرتضى في اماليه (جـ ١ ص ١٣٥) يذكران انه قالها حين مر ببيت من بيوت النار فان الاصفهاني (الاغاني ، جـ ١٨ ص ٢٠٠) يشير الى انه قالها معاتبا اصدقائه الذين قبضت عليهم السلطة بتهمة الزندقة والتشكيك بالدين •

(٦٠) ابن عبدالبر ، جامع بيان العلم وفضله القاهرة ١٣٤٦ جـ ٢ ص ٣٣ •

(٦١) ابن المقفع ، الادب الكبير ، بيروت ١٩٦٠ ص١١١ • — انظر كذلك الادب الصغير ، ص٦٠ •

الخراساني وابي سلمة الخلال وغيرهم من رجالات الدعوة العباسية(٦٢) ٠

وحين ثار عبدالله بن علي العباسي على الخليفة المنصور مطالبا بالخلافة ارسل اليه الخليفة ابا مسلم الخراساني الذى تمكن من دحره الا انه لم يأسره بل مكنه من الهرب الى البصرة حيث اخوه سليمان بن علي واليا عليها منذ سنة ١٣٣هـ/٧٥١م ٠ ولم يطالب به المنصور بصورة جدية الا بعد ان تخلص من الاخطار الآنية المحيطة به مثل خطر ابى مسلم الخراساني وخطر العلويين ، ولكن سليمان بن علي ماطل في تسليمه وطالب بالامان لاخيه عبدالله فما كان من المنصور الا ان يعزل سليمان عن البصرة ويعين بدله سفيان بن معاوية المهلبي في رمضان سنة ١٣٩هـ / شباط ٧٥٧م ٠ اما ابن المقفع فكان في صحبة عيسى ابن علي العباسي الذى عاد لتوه من الجهاد ضد البيزنطيين في تلك السنة(٦٣) ٠

والظاهر ان سفيان المهلبي ، رغم الضغوط التي استعملها ، لم يستطع اخراج عبدالله بن علي من مأمنه مما اضطر الخليفة الى الموافقة على فكرة اعطاء أمان لعبدالله الثائر ٠ ولكن المنصور كان يريد من الامان ان يكون وسيلة لايقاع عبدالله في الفخ وقد خطط لاعطاء امان ضعيف يمكن نقضه عند الضرورة ولم يكن في نيته اعطاء امان محكم ومتقن وغير مشروط ٠

وهنا يأتي دور ابن المقفع ٠٠٠ ذلك ان مخاوف سليمان وعيسى على اخيهم عبدالله دفعتهم الى اختيار ابن المقفع كاتب عيسى بن علي لكتابة الامان واحكامه احكاما دقيقا لا فجوة فيه ومما زاد في الامر ما جاء في رواية الجهشياري آنفة الذكر من اشتراط كتابة الخليفة المنصور لنص الامان بيده ٠ وقد وضع ابن المقفع في الامان شروطا تجعل من عبدالله بن علي شخصا خارج سلطة الخليفة الذى يتعهد بالا يطبق عليه اى عقوبة او اجراء اصولى متبع ٠ ولكن الخليفة اشترط حين رأى (الامان) قائلا : « اذا وقعت عيني عليه » كما يقول الجهشياري او « نافذ ان رأيت عبدالله » كما يقول البلاذري(٦٤) ٠ اى ان المنصور لا يعطي أمانا لعبدالله بن علي الا اذا قابله وبغير هذه الحالة يعتبر الامان غير نافذ ٠ ولا يذكر الطبري واليعقوبي(٦٥) هذا الشرط بل انهما يؤكدان بأن عبدالله حين وصل الى البلاط كان قد حصل على الامان ٠ وهذا غير معقول لانه لو حصل عبدالله على الامان لم يكن هناك موجبا له للذهاب الى البلاط ومقابلة المنصور ٠ هذا من جهة ومن جهة ثانية فليس من المعقول ان يعطى الخليفة امانا غير مشروط لان معنى ذلك اعطاء عبدالله حرية العمل دون قيد او شرط ٠

ان ما حدث هو ان عبدالله الذى كان قد وقع تحت تأثير اجراءات المنصور والحاحه وتدابير الوالى الجديد لم يجد امامه سوى التوجه الى الخليفة للحصول على الامان الذى وعد به اذا ما قابل الخليفة خاصة وانه كان مطمئنا من احكام شروط الامان بصورة لا تسمح بالنقض ٠ ولكن عبدالله اقتيد الى السجن حال وصوله البلاط ولم يسمح له بمقابلة المنصور وكان ذلك سنة ١٣٩هـ/٧٥٧م ٠ وقد لقي اتباعه ومواليه نفس المصير ونفي بعضهم الى خراسان(٦٦) ٠ وفي سنة ١٤٦هـ/٧٦٤م دبر المنصور امر اغتيال عبدالله بن علي في ظروف غامضة ٠

من الواضح ان ابن المقفع استطاع باحكامه لشروط الامان ان يعرقل محاولة الخليفة اعطاء الامان متهافت يمكن نقضه في المستقبل القريب مما اضطر الخليفة ان يستعمل وسائل اخرى اكثر فاعلية وعنف للتخلص من عبدالله بن علي ٠٠ الا اننا نتساءل هل يمكن ان يكون الامان السبب الوحيد لقتل ابن المقفع ؟؟ في اعتقادنا لابد ان يكون هناك اسباب اخرى اكثر اهمية وهذا ما يؤيده البروفسور سورديل ولكنه يقول : « ومهما يكن من أمر فستبقى حقيقة كره المنصور لابن المقفع مجال حدس وخيال بسبب عدم توضيح المؤرخين الاوائل لها »(٦٧) ٠

وهنا تبرز لنا رسالة ابن المقفع الموسومة (رسالة في الصحابة) التى تعالج موضوعا حساسا هو اخلاقية الحكام واصول السياسة والتدبير ٠ وهذه الرسالة تختلف جذريا عما كتبه او ترجمه ابن المقفع وقد جاء الكاتب فيها بامثلة عملية عن المشاكل الرئيسية التى كانت تواجه الخلافة العباسية ٠ وقد اكد البروفسور كويتين ، كما اشرنا الى ذلك سابقا ، اهميتها التاريخية والسياسية خاصة وان ابن المقفع

---

(٦٢) عن هذه الاحداث راجع : فاروق عمر : العباسيون الاوائل ، ج ١ بيروت ١٩٧٠ ٠ ج ٢ دمشق ١٩٧٣ ٠

(٦٣) الطبري ، تاريخ ٠٠ طبعة القاهرة ج ٩ ص ١٧٠ فما بعد. ـ البلاذري ، انساب ٠٠ ، ورقة ٧٦٧ أ ٠

(٦٤) الجهشياري ، الوزراء ، ص ٧١ ٠ ـ البلاذري انساب ٠٠ ، ورقة ٧٦٧ أ ٠

(٦٥) يعتقد هيوارت مستندا على غموض الطبري واليعقوبي ان شروط الامان املاها الخليفة وقدمها لعبدالله بن علي ٠ والواقع فان الطرف الثاني الطالب للامان هو الذي يضع شروطه التي يريدها ٠ انظر (E.I.(١)).

(٦٦) الطبري ، تاريخ ، طبعة القاهرة ج ٩ ص ١٧٢ ٠

(٦٧) Sourdel, op. cit., p. 322

كتبها باسمه وعنونها الى الخليفة الامر الذى اثار حفيظة المنصور وشكوكه ·

ويعترف البروفسور سورديل(٦٨) بأهمية (الرسالة) ولكنه يربطها كذلك بموقف ابن المقفع السياسى وولائه لاولاد علي بن عبدالله العباسى (اعمام الخليفة المنصور) · ذلك ان من اهم النقاط التى تثيرها الرسالة هى الدفاع عن الارستقراطية العربية ووجوب وضعهم في مركز القيادة في اجهزة الدولة · وسواء كان هذا المبدأ من بناة افكار ابن المقفع ام ان اعمام المنصور قد اشاروا به عليه(٦٩) ، وهو الارجح ، فان هذا الاتفاق بين ارتباطه الوثيق بينهم وبين دعوته لاسهام الاشراف العرب بصورة اوسع في ادارة الدولة والاعتماد عليهم لا يمكن ان يكون عفويا خاصة وان اعمام المنصور من بني هاشم كانوا على رأس قائمة الاشراف العرب ·

ولعلنا نشير هنا بأن الدولة العباسية في عصرها الاول لم تحرم العرب من السلطة والنفوذ بل على العكس فقد كان العصر العباسى الاول عصر النفوذ العربى وان الخلفاء العباسيين الاوائل شجعوا كل ما هو عربي في الجيش والادارة والثقافة الا ان ما كان يقصده ابن المقفع هم مجموعة من العرب يعتبرون منافسين للمنصور على الخلافة وهم اعمامه وآخرين معادين للدولة · ولعل خطورة عبدالله بن علي بالنسبة للمنصور تظهر من قول الاخير لاعمامه الذين طلبوا منه الوفاء بعهده :

« لا تكلموني فيه فانه اراد ان يفسد علينا وعليكم امرنا »(٧٠) ·

بينما يدافع ابن المقفع عن اعمام الخليفة بجرأة وصراحة حيث يذكرهم بالاسم فيقول :

« ومما يذكر به امير المؤمنين أمر فتيان أهل بيته وبنى ابيه وبنى علي وبنى العباس فان فيهم رجالا لو متعوا بجسام الامور والاعمال سدوا وجوها وكانوا عدة لاخرى »(٧١) ·

ويدافع ابن المقفع عن اهل الشام(٧٢) اعداء العباسيين ويحذر المنصور منهم قائلا « فانهم اشد الناس مؤونة واخوفهم عداوة وبائقة » ، ويحاول ان يبرر موقفهم المعادى للدولة العباسية فيشير بصراحة الى انهم ظلموا ولم يؤخذوا بالحق : « فلعمرى لئن اخذوا بالحق ولم يؤخذوا به انهم لخلقاء الا تكون لهم نزوات ونزقات » ·

ويهاجم ابن المقفع صحابة الخليفة ويعريهم ويصفهم بالفساد وضعف الرأي فيقول :

« ما رأينا اعجوبة قط اعجب من هذه الصحابة ممن لا ينتهى الى ادب ذى نباهة ولا حسب معروف ثم هو مسخوط الرأي مشهور بالفجور في اهل مصره قد غبر عامة دهره صانعا يعمل بيده ولا يعتد مع ذلك ببلاء ولا غناء الا انه مكنه من الامر صاغ فانتهى الى حيث احب فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من ابناء المهاجرين والانصار وقبل قرابة أمير المؤمنين واهل بيوتات العرب ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيرهم من سروات قريش ··· »(٧٣) ·

هذا قليل من كثير اشار اليه ابن المقفع في (رسالته في الصحابة) ورغم اهمية ما ذكر ورغم انه بدأ رسالته بالاعتذار للمنصور عما سيقوله وانه انما اراد النصح والاصلاح حيث يقول « وفي الذى عرفنا من طريقة امير المؤمنين ما يشجع ذا الرأي على مبادرته بالخبر فيما ظن انه لم يبلغه اياه غيره وبالتذكير بما قد انتهى اليه ··· »(٧٤) الا ان ذلك كله لم يشفع له بل اثار حفيظة الخليفة مثلما اثارها حين كتب الامان لعبدالله بن علي الثائر على الخلافة العباسية ·

ولكن هل ان ما دونه ابن المقفع من شروط محكمة في (الامان) ، وما عبر عنه من آراء في (رسالة في الصحابة) كان كافيا لتبرير قتله ؟ ولابد هنا ان نشير الى ان من مظاهر هذه الفترة التى عاش فيها ابن المقفع ظهور جماعات او حلقات من الكتاب والشعراء والمفكرين المعجبين بالحضارة الفارسية وقيمها ، الداعيين الى اتخاذها مثلا يحتذى به في المجتمع العباسى · وبقدر ما يتعلق الامر بأبن المقفع فان اغلب كتاباته تظهر لنا صورة شخص معجب بالحضارة الفارسية حيث جعل من نفسه واعظا يبشر بقيمها ويعرف باصولها للمعاصرين له ويدعو الدولة لتقبلها · ولعل الكثير ممن كانوا اصدقاءا لابن المقفع

---

(٦٨) Ibid

(٦٩) يعتقد جبريللي ان رسالة في الصحابة وثيقة كتبها ابن المقفع بطلبه من اعمام الخليفة اولاد علي العباسى ، (المصدر السابق ، pp. 231—35

(٧٠) البلاذري ، مخطوطة انساب الاشراف ، ورقة ٧٦٧ أ . بل ان المنصور يعتبر عبدالله اكثر خطورة من محمد النفس الزكية الثائر العلوي ·

(٧١) رسالة في الصحابة ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ٢١٨ ·

(٧٢) المصدر السابق ، ص ٢١٠—٢١٢ ·

(٧٣) المصدر السابق ، ص ٢١٥ ·

(٧٤) المصدر السابق ، ص ١٩٠ — ١٩١ ·

ممن ذكرناهم سابقا من الموالى الفرس يحملون نفس النظرة او تطرفوا اكثر منه • ان ظاهرة انتعاش الروح الفارسية والتبشير بقيمها الحضارية واصولها لدى ابن المقفع وحلقته هى التى حملت الناس على الشك في عقيدتهم الدينية واتهامهم بالزندقة حيث يقول الجاحظ : « وكلهم متهم في دينه »(٧٥) •

لقد ادرك الخلفاء العباسيين الاوائل خطورة هذه الدعوة الى امتثال النمط الفارسى في المجتمع والادارة وحاولوا تقييدها وضبطها بحيث لا تؤثر على طابع الدولة العربى وقيمها الاسلامية • ولم يكن دور ابن المقفع المعادى لسياسة الدولة العباسية في هذه المجال باقل من ادواره السابقة بل ان خطره هنا اكثر نظرا لبلاغة اسلوبه وقوة تأثيره •

الخاتمة :

لقد كان مقتل ابن المقفع نتيجة سياسة مقصودة اتبعها المنصور لحماية الخلافة العباسية ولم يكن سفيان المهلبي الا واسطة في هذه العملية رغم انه كان متحمسا لتنفيذها بسبب العداوة الشخصية والحقد اللذين يحملهما لابن المقفع • ومما يدلل على اقرار المنصور للعملية تهديده غير المباشر لشهود الاثبات الذين جلبهم اعمام الخليفة ليدينوا سفيان المهلبى • يقول البلاذرى(٧٦) :

« قالوا وشكا بنو علي بن عبدالله ما صنع سفيان بابن المقفع الى المنصور فأمر بحمل سفيان اليه فحمل وشخص معه اهل بيته وجاء عيسى بن علي بقوم يشهدون ان ابن المقفع دخل داره فلم يخرج وصرفت دوابه وغلمانه يصرخون وينعونه ، وبآخرين يثبون الشهادة انه قتله • فقال المنصور : ارأيتكم ان اخرجت ابن المقفع اليكم ماذا تقولون ؟ فانكسروا عن الشهادة وكف عيسى عن الطلب بدمه » •

وعلى ذلك فان فرضية زندقة ابن المقفع فرضية بعيدة الاحتمال حيث لم يكن المنصور ليهتم بآراء ابن المقفع الدينية ولا بارتباطه بالمانوية قدر اهتمامه باخلاص ابن المقفع للخلافة العباسية نفسها • ولعل موقف المنصور من الراوندية يؤكد ماذهبنا اليه • فحين اشير عليه ان يحد من فعالية هذه الفرقة المتطرفة في آرائها قال « دعهم يدخلون النار في طاعتنا على ان يدخلوا الجنة في معصيتنا »(٧٧) •

لقد اغتيل ابن المقفع اغتيالا سياسيا حين عزم المنصور على التخلص منه لاسباب ثلاث :

اولها : ارتباطه باعمام الخليفة المنافسين له وذلك بكتابته الامان للثائر عبدالله بن علي •

ثانيها : دفاعه عن اعداء الدولة وانتقاده سياسة الخلافة بصراحة تظهرها رسالته في الصحابة •

ثالثها : دعوته لتقليد واقتباس النمط الفارسى الحضارى وهى دعوة لم تكن تتفق مع سياسة المنصور•

وللجاحظ في هذا الشأن ملاحظة ذكية وبليغة يعلق فيها على مصير ابن المقفع ولكنها مختصرة جدا لا نستطيع ان نحملها اكثر من طاقتها بل نوردها حيث يقول في (ذم اخلاق الكتّاب) :

« ثم كتب لبني العباس عبدالله بن المقفع فأغرى بهم عبدالله بن علي ففطن له وقتل وهدم البيت على صاحبه »(٧٨) •

لقد حذر ابن المقفع من التقرب الى السلطان في عدة مناسبات في كتبه وتراجمه ورأى في هذه الصحبة مسؤولية كبيرة حيث نراه يقول في نصيحة له :

« ان ابتليت بصحبة وال لا يريد صلاح رعيته فاعلم انك قد خيرت بين خلتين ليس منهما خيار : اما ميلك مع الوالى على الرعية وهذا هلاك الدين واما الميل مع الرعية على الوالى وهذا هلاك الدنيا ولا حيلة لك الا الموت او الهرب »(٧٩) •

ولعل الكثيرين استفادوا من نصائح ابن المقفع وحكمته الا هو فلم يستفد منها حيث ادخل نفسه مدخلا صعبا مع الخليفة المنصور ووالية على البصرة سفيان المهلبي لم يستطع الخروج منه فكان مصيره الموت بتدبير من الخليفة الذى كان يقول « ان الملوك لا تحتمل القدح في الملك »(٨٠) مما يدل على شدته تجاه الاشخاص الذين يعتبرهم اعداء سياسيين للخلافة •

---

(٧٥) انظر : Daud, op. cit., pp. 35 ff

(٧٦) البلاذري ، مخطوطة انساب الاشراف ، ورقة ٥٣٥ •

(٧٧) الطبري ، تاريخ ، ليدن ، القسم الثالث ص ١٣٢ •

(٧٨) الجاحظ ، رسائل ، قاهرة ١٩٦٤ جـ٢ ص ٢٠٢ • — تحاول بعض الروايات ان تزج اسم الوزير ابي ايوب المورياني في عملية الاغتيال وطمس الحقائق حولها فتظهر ابن المقفع وكأنه ينافس المورياني على منصب الوزارة وان المنصور هدد المورياني بان يستبدله بابن المقفع ولذلك فان المورياني لعب دورا في مقتل ابن المقفع وانقاذ سفيان المهلبي من العقاب (راجع مخطوطة انساب الاشراف ورقة ٥٣٤ فما بعد) الا ان هذه الروايات ضعيفة ونصيبها من الصحة ضئيل .

(٧٩) ابن المقفع ، الادب الكبير ، بيروت ١٩٦٠ ، ص ١٢٢ .

(٨٠) الطبري ، تاريخ ، جـ ٣ ص ٥٣٨ (الطبعة الأوربية) .